على الآخرين . وفي كل طبيعة خيرة يوجد في العادة عنصر يسمى الجراة ، وهذا العنصر كان مفقوداً لدى إيڤان . حقاً لم يكن له يومذاك إلا سبعة عشر عاماً ولكن إذا كان مقدراً للجراة أن تظهر فإنما هي تظهر في هذا السن . وإذا توخينا العدل فإن الصدام الذي حدث في كولومنا حيث لم يكن حملة القربينات القادمون من نوفغورود يطلبون اكثر من ان يمثلوا بين يدي سيد البلاد ليقدموا له عريضة متواضعة لم يكن ليحدث لولا ان إيڤان كان خالياً من اية جراة . وفي استقبال المبعوثين القادمين من پسكوف وهم عزل من السلاح بدا إيڤان قاسياً وجباناً في الوقت نفسه ، وسوف نرى كيف ان الخوف كان يحتل المكان الاوسع في طبيعة إيڤان الرهيب .

على انه كان يخشى الله اكثر مما كان يخشى الناس . ولكن إذا كان خوف الله يعتبر بدءاً للتعقل والحكمة في التصرف فكيف حدث ان اودى به الى مثل هذا الطيش والتهور . ونحن نجيب بأن خوفه من الله كان خوفاً متطيراً لا يستند الى محاكمة عقلانية لانه لم يكن يملك اي شيء من مثل هذه المحاكمة ، فإيمانه كان اعمى كما لو انه سحر قبل مولده فغدا عبداً لما وراء الطبيعة . والكنيسة في نظر إيڤان في هذه الحقبة المبكرة من حكمه كانت سلطة مقدسة ، وكهنتها ورهبانها وقد يسوها كانوا قوماً مميزين لا يتعرضون لأخطار التعذيب والموت التي كان يتعرض لها بقية رعايا القيصر .

وكان المتروپوليت ماكاري ذلك العجوز الطيب العاقل الشجاع الفاضل رجل الله ــ بغض النظر عما كان عليه من اوهام ــ كان يمارس على إيڤان نفوذاً خيراً . كان اباً لإيڤان في الله وكان له على حياة سيد البلاد الفتي نفوذاً اكبر واثراً من نفوذ اي إنسان في المملكة . كان ماكاري يحب السلام ويكره العنف والقسوة ولكنه لم يستطع أن ينتزعهما من قلب القيصر الشاب ، فقد كان إيڤان كلما زاد في سجوده وبالغ فيه كلما زاد في قسوته وضراوته .